

أحبتي.. قتلتني

سعيدة بشار- الجزائر

تسريب الألم الجاثم على الصدر حينما تعجز الدموع وتعلن إفلاسها.

للحزن أكثر من وجه، وللخيبة أكثر من اسم!..
كم من الخيبات تلزمننا حتى نستطيع كتابتها؟!
ترفض الكلمات أن تطاوعها، وتظل كخيول بريّة
عصيّة تأبى أن يُروّضها بشر، وتظلّ في جموحها
تتعالى عليها رافضة سلطتها.

تفاجئها من عمق عتمتها عيون طفلة لم تفقد
بعد ابتسامتها.. تمدّ إليها بريقها كما القدر حين
يلقي إلى الغريق بيد رحيمة لتنقذه.. هي ذي تعاود
الظهور من جديد.. من رحم الماضي.. أيا طفلة
لا تزال في المهد صبية، ضمّيني إليك وعانقيني..
أحبك بصدق.. إنّ الصّدق قد غاب من حولي، وكلّ
الابتسامات المصطنعة قد ظهرت على حين غفلة من
صانعيها، وكلّ صروح الحب قد انهارت.. ما أشدّ
فجيعة الحب وهو يتخبّط في بقايا أشلائه! والدنيا
من حوله ضاحكة ترقص على إيقاع أنفاسه الأخيرة
ولا تُبالي.

حينما أنهت ترتيب غرفتها تأملتها بسخرية
منفلّنة:

- إنها لا تشبهني بتاتاً.. أفكار مبعثرة كأوراق
لا تزال الرّيح تعبث بها، ولم تقرّر بعد إيصالها إلى
أية وجهة، فكيف يجتمع كلّ هذا الترتيب مع كلّ هذا
التشتت في رقعة مكانية وزمانية واحدة؟!.. عبث!..
انفلتت منها ضحكة ساخرة..

أعادت بعثرة الأشياء في كلّ رقعة من الغرفة،
وقرّرت أن تبالغ في البعثرة حتى تتشابها.
باغتتها فكرة عابرة:

- ماذا لورآني أحدهم أبعثر الأشياء هكذا؟!
وكمن يدفع عنه شبهة أسرع إلى الباب تفلقه،
وعادت لتفترش خراب إبداعها، ولتشاهد على مهلٍ
تطاير أفكارها الحائمة حولها.
صمت كاذب يكسو الأجواء والأفكار والأنفاس،
وكما الصياد يتربص فرائسه وهو يشتهيها، ظلّت
هي تتربص في تصبّر كلمات تستجدي منها عطفها
لتحرّرها من حزنها، أحياناً تستطيع الكلمات وحدها

وكظم الغيظ.. هو من ورط نفسه.. ماذا جاء يبحث عنه عندي؟

فتحت له صوت بركانها:

- اذهب إلى الجحيم!..

وأسرعت بإغلاق الهاتف قبل أن يصعقها ببعض المختارات التي لم تكن تودّ سماعها.

فكرت لما قالت له: «اذهب إلى الجحيم».. هل كانت تريد أن تُصدّر إليه جحيم حزنها حتى تتخلص منه؟.. وكأنّه كان ممكناً التخلص من ناره



أيا طفلة لا تزال في المهد صبية.. دعيني أبكي على صدرك خيباتي، فما عاد هناك صدرٌ يحتويني.. قد حواه ترابٌ لا يزال في انتظاري.. مجهول الخبايا كما الأقدار.. كما الغيب.. كما الحياة.

أيا طفلة لا تزال في المهد صبية.. لا ترفضيني، وأمهليني حتى أستعيدك.. إن لي أعذاراً لا بدّ أن تعلميها.. قد مضى زمنٌ طويل، قد كبرت، قد بعدت، قد نسيت.. واستعرضت الحياة بريق زيفها حتى بالغت، وزادت العتمة في عمقي حتى استبدت.. وابتعدت كثيراً.. وتُهِت بعيداً.. وتسَلَّت الحياة مني ذات عمرٍ لم أعد أذكره، وخَلَفَتني بعدها قبراً مجهولاً، غير معترف به، يبحث لذاته عن معنى.. فلا هو أهلٌ للحياة، ولا هو صار أهلاً للموت.. تجافيني الحياة والموت كلاهما، وأنا بينهما.. تشتّت وضياؤ في ضياع، وأملٌ يتخبط كالغريق يرجو النجاة.

ظَلَّت أفكارها شاردة تحوم حول نفسها في حلقات خانقة.. وهي تحاول اصطليدها، والفوضى من حولها تهدد ترانيم الألم.. لو لم يكن في الجحيم سوى هذا العذاب لكفى به عقاباً.. أيّها القلب الشريد ما أشدّ عذابك!

رنّ الهاتف واهتزّ بلحنٍ لا يناسب الزمان ولا المكان ولا واقع الحال:

- ألو.. نعم.

- كيف حالك سمية؟

- آسفة لست سمية، يبدو أنك قد أخطأت في الرقم.

- من تكونين إذن؟ ما اسمك؟

- غير مهم اسمي.. قد أخطأت الرقم والشخص.

- لا بأس بذلك، صوتك جميل، من تكونين؟ نسيت للحظة كلّ المواعظ حول الأدب في الحديث



كان عليها أن تكون أكثر حرصاً أمام امرأة لم تتحرّج يوماً من الإعلان عن إعجابها أمام نظرية اليهود حينما قالوا: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض!»، فأقتنعوا العالم أنهم ما دخلوا تلك الأرض إلا لفراغها من آية حياة! فكيف ستقنع الناس يا ترى أنها لم تدخل قلباً إلا بعد أن تيقنت من فراغه من سواها!.. باغتتها ضحكة ساخرة:

-أكيد ستجد مخرجاً.. هي التي درست التاريخ كما كان، ثم صارت تؤوله كما تشاء.. أكيد ستجد مخرجاً مناسباً.

كان عليها أن تشكّ أن طفلة ألفت عند البدايات أن تسرق دُمّها وألعابها، ثم تصرخ معلنة أنها ألعابها وقد استعادتها.. كان عليها أن تشكّ أن طفلة كتلك لا بدّ أن تكبر يوماً لتلتهم كلّ ما في يديها، ثم تصرخ كالمتعاد، وتبكي كالمتعاد، وتدّعي لها كلّ ما كان، ثم تتنازل المالكة عن أملاكها كالمتعاد.. واليوم تتنازل الملكة عن عرشها، وتتسحب لتترك المكان للجارية إلى جانب الملك الأعمى..

هل سيشكّ يوماً أنها غشّت في عواطفها!.. يغشّ العشاق أحياناً ليحفظوا بمن يحبون.. لكن هل يعقل أن يغشّوا ليحصلوا على من ليس لهم!.. تغدر الأفاعي دائماً حينما تستأمنها على دارك وفراشك.. ربّما لذلك سارع الغرب للاعتراف لليهود بدولة لهم على أرض فلسطين ليعيدوهم عن أراضيهم، كانوا يدركون جيّداً أن الأفعى التي تنام في فراشك لا بدّ أن تغدر بك يوماً على حين غفلة منك، فكان الأسلم لهم إبعادها إلى فراش غير فراشهم.

كان يعتقد أن تطابق أفكارهما وأحلامهما.. وضحكتهما أمام الأشياء ذاتها، وبكاءهما أمام الأحران ذاتها.. كان يعتقد ذلك إشارة من القدر أنه أخطأ في ارتباطه بالأولى، وأن الثانية هي حتماً

بمجرد إلقائه إلى أحد سواها، أم لأنه غريب متطفل استحق أن تتمنى له جحيمها!.. ليس لذاك أهمية. إذا حاولنا قياس الضغط، فأيّ الخيبات أشدّ!.. الخيبات القلبية، أم خيبة الصداقات المزيفة!.. وكيف حينما تجتمع الخيبات جميعها في قلب واحد! وتتوزع سمومها إلى الذاكرة وكلّ خلية من خلايا الجسم! أيمن أن نسميه تسمماً عاطفياً! وأي طبيب يمكننا أن نشكّله تسمماً عاطفياً!.. أليس مضحكاً أن نقصد طبيباً، وحينما يسألنا: ماذا نشكو؟ نخبره بكثير من الصدق والجديّة أننا نشكو تسمماً عاطفياً من جرّاء الخيبات المتتالية.

انفلتت منها ضحكة ساخرة.. هي ذي كلّ الخيبات مجتمعة أمامها على خشبة مسرح واحدة، وكلّ منها تتفنن في الترافض بخبث أنثى ما احترفت في حياتها سوى الإغراء.. كيف تقنعهن بأن يغادرن الخشبة ويتسترن! هزّت رأسها كمن ينفض عنه قذارات متساقطة عليه من وجهة غير محددة، وأجالت عينيها في غرفتها بسرعة من يكاد يُغمى عليه من كثرة الدوران.. ما خطر بقلبها قطّ أنها ما فتحته إلا لتُغرس فيه سهام أغلى الناس.. وكيف لها أن تشكّ!.. ما ظنّت أبداً أنها حينما كانت تحدّثها عن زوجها أنها في الواقع كانت تهدي لها المسالك السريّة إلى عقله، ومفاتيح قلبه لتدخله وتقفّل الأبواب من ورائها.. في وجهها هي.. ما ظنّت أنها ستخرجها من مسكنها لتنفرد به على مرأها، وتتركها لصقيع الخيبة والدهشة.. والوحدة.. ما استطاعت أن تفهم حقيقة نظراتها إليها حينما كانت تلقي إليها بورود فرحتها، وحتى همومها وأحزانها، وما استطاعت أن تفهم أسئلتها المسترة بأثواب الصداقة والحرص عليها.. ما شكّت أنها كانت تبحث في الحقيقة عن مفاتيح البوابات السريّة إلى قلبه.. ما شكّت في إخلاصها يوماً!

السعادة القادمة، كان يعتقد أن امرأة كتلك ما كانت لتخبره عن زيف عواطف زوجته له، صديقة عمرها، لو لم تكن صادقة في أقوالها، وتلميحاتها، وفي حرصها على سعادته.. امرأة كتلك لا يمكن إلا أن تكون هدية القدر إليه، فأسرع كالمخدر إلى شراكها، وارتمى في سراها، وأعلن للعالم عن اسم الملكة الجديدة.

فاجأتها من عمق عمتها ذكرى طفلة تبكي دُمَاهَا وألعابها المسروقة منها احتيلاً، كانت تجري لتبكي بحرقة المفجوع عند صدر أمها، وصدر أمها اليوم يضمُّ التراب.. فمن يضمُّها؟ وأين ستبكي اليوم فجيعتها؟ وأين ستخبئ دموعها؟



تذكرت مقولة قرأتها ذات يوم دون تركيز: - (تأتي بإنسان وتزرعه في تربتك.. فيقتلك أول ما يقوى عوده، يتمدد ويعربش، يسرق ماءك كي ينمو أسرع منك، تستيقظ ذات صباح واذ به أخذ مكانك، وأولم لأعدائك من سلال فاكهتك، ودعا الذئب لتنهشك وتغتاك!)^(١).

كان سيكفيها منه إلى آخر لحظة من كابوسها أن يوقظها منه ويمسح دموعها، ويطمئننها كما كان يفعل دائماً:

- إنه مجرد كابوس.. لا تخاف في حبيبي أنا معك. لكنه لم يوقظها تلك المرة، ولم يمسح دموعها، ولم يطمئننها.. سدّد إليها سهامه الأخيرة، ثم أسلمها لحريق الفراق الحاسم.. لتتناثر بعده هباءً في كل الاتجاهات..

- كيف يوثق في قلب رجل وقد أعدّ منذ البدء ليضمّ أكثر من امرأة؟.. هو الذي خلّق من الأرض لينتمي دوماً إليها.. وخلقت هي منه لتتتمي دوماً إليه، وتظلّ مرتبطة به وحده.. منه حياتها.. وله حياتها، ودونه.. لا حياة.. فكيف ستعيش دونه؟ وكيف ستحمّل أوجاع كل تلك التفاصيل التي تصوّره لها مع قاتلتها؟.. خانتها قواها.. تذكرت قوله صلى الله عليه وسلم: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها.

تساءلت في ألم:

- هل يشفع لي أنني دفعت ثمن خطيئتي اليوم فلا أكون أشر الناس غداً؟ وهل...؟
ما عادت تحتمل التفكير.. انهار ما تبقى من قواها على الأرض ■

(١) أحلام مستغانمي، الأسود يليق بك، ص ١٨٧.